الفصل الثالث

المعصـــوم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا
مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الحجر - الآيات ٣٩: ٤٢]

(١)

انتقل محمد ليعيش فى بيت عمه أبى طالب، ولقد وجد أبو طالب نفسه تتعلق بمحمد لذكره الدائم لجـده بالخير والعرفـان، ولقد نزل حب الصبى فى قلبه حتى تمكن منه، فكان يحاول ألا يحرمه من أمر كان له أيام عبد المطلب، فها هو ذا عمه يجعله قريبا من مجلسه بالكعبة، وها هو ذا يرافق عمه فى رحلته بالتجارة إلى الشـام، على رغم تألمه من ذكريات وفاة أخيه عبد الله فى رحلة مشـابهة، وتطيره منها، ولكـن كيـف لا يرق قلبه للصبى المثخن بجراح الفقد، وهو يتعلق ببردته متوسـلا ألا يتركه فى مكة وحيدا.

سافر محمد رحلته الأولى إلى الشام، وحين أناخت القافلة لتستريح العير والرجال، بجوار غار يطل علـى الطريـق يقيم فيه راهب، ما كاد يراهم حتى هرول إليهم تاركا صومعته على غير ما عودهم، فلقد كانوا فى السـابق يحادثونه ويحادثهم دون أن يظهر نفسـه لهم، ولكنه هذه المرة غير من عادته، وتقدم ينشد أبا طالب، وقد أخذ يحدق فى محمد باهتمام، ثم سأله:

- أهذا الصبى، ابنك يا أخا العرب؟.

- حقا هو ابنى.

ويحمر وجه الراهب من الغضب، وهو يسأل أبا طالب زاجرا. يطالبه بقول الحقيقة:

- أهو نكاحك؟!.

- لا.. فهو ابن أخ لى مات، والصبى بعد جنين فى بطن أمـه.

ويتهلل وجه الراهب بالبشر، ويهمس وكأنه يحادث نفسه:

- هو إذن اليتيم الذى يكفله الله، ويعصمه.

ثـم طلـب الراهب من أبى طالـب راجيا، أن يقبـل مرافقته هو والصبى إلى صومعته، ويسـتجيب

أبو طالب، وهو فى دهشة من حال الاضطراب التى أصبح عليها الراهب.

فى الغار يكشف الراهب بيد مرتعشة عن ظهر محمد، ثم يرد الرداء بسرعة، وهو يهتف:

- قدوس، قدوس، إنه لهو، وهذا هو الزمان الذى يظله.

ثم استدار إلى أبى طالب، وقال فى رجاء:

- اكتم أمر الفتى، وعد به إلى قريتكم، فإنه لو علم به اليهود لقتلوه.

واستأذن أبو طالب من رفاقه فى التخلف، لعدم القدرة على مواصلة السفر لمرض طارئ ألم بابن أخيه، وأوكل لأحد رفاقه أن ينوب عنه فى تجارته، ثم عاد بمحمد إلى مكة: والخوف عليه يملأ حناياه.

ولم تتم سفرة محمد إلى الشام.

مع مرور الأيام..

عمل محمد برعى الأغنام ليكتسب قوته، فعمه أبو طالب كان كثير العيال، محدود الرزق، وعلى رغم معاشرته لرعاة من كل الطبائع، فإنه كان لا يفعل فعلهم، فهو أقرب إلى العزلة منه إلى الإقبال على مباهج الحياة ولهوها؛ فلقد كانت أسعد لحظاته، هى تلك التى يخلو فيها إلى نفسه بعد أن يفرغ من متابعة حركة غنيماته، حين تهدأ لانهماكها فى الطعام، أو حين ركونها إلى النوم، هنا ينصرف إلى تأمل السماء: بروعة زرقتها، وتوهج شمسها، ومرور كِسَفِ السحاب شفيفة تمشى هونا فتحجب الشمس فى وضح النهار، أو النجوم والقمر فى وقب الليل، ويتدبر فى الأرض وما عليها من: جبال ورمال وصخور وشجر ورياح ومطر وكلأ، ولعل ذهنه كان يجول متأملا فيما حوله، باحثا فى روعة خلقه، وعظمة الصانع القدير الذى قدر وفعل، فجعل الليل ثباتا والنهار معاشا، وباليقين فإنه حين يصل إلى هذا الحد من التأمل، يتساءل: هل يعقل أن تكون تلك الأحجار الصماء العمياء التى يتقرب إليها أهله زلفى، هى ذاك الصانع لكل ما حوله من سماء وأرض ومخلوقات، أو حتى تصلح لتكون بصممها وعماها وعجزها واسطة بين قومه وبين الله؟!.

محال أن تكون هى الصانعة، أو هى الواسطة التى تقربهم إلى الخالق، فهى أعجز من أن تهش الذباب عن أنوفها، أو تبعد العير عن البول على أقدامها!!.

ولقناعة محمد بما أوصله إليه تدبره، كان لا يقبل على الطقوس التى يقيمونها تبركا وتمسحا بالأوثان، بل كان شديد النفور منها لا يقرب أماكنها، ولا يسجد لها، وهو نهج رباه عليه من اصطفاه منذ الصغر، فكثيرا ما ألحت عليه عماته ليشاركهن أعيادهن التى يتقربن فيها زلفى إلى أصنامهن، وكان إلحاحهن إشفاقا عليه، لخوفهن من أن يكون عزوفه عن حضور تلك الأعياد، بسبب شعوره باليتم، لكنه كان يقابل دعوتهن بالرفض، ولما أجبرنه ذات مرة على أن يصحبهن، فر هاربا فى رعب من أمام الصنم، وهو يقسم لعماته بأن رجلا أبيض الثياب، قد وقف يحول بينه وبين الاقتراب، ثم زجره حتى يبتعد.

أما بالنسبة لأترابه فلم يدهشوا من أفعاله، فلقد بدت لهم عادية، فهم يرون أنه ليس مثلهم: فهو لا يسرق لبن الغنيمات، ولا يجلس فى أماكن اللهو والغناء، ولا يلعب الميسر، ولا يشرب الخمر،

ولا يسعى إلى ملاطفة الفتيات، فَلِمَ وهو كذلك، لا يختلف عنهم فى نظرته إلى الأوثان، فلا يقربها أو يتمسح بها؟!!.

ذات ليلة ألح عليه رفيق من الرعاة إلحاحا شديدا، فى أن يترك له أمر حراسة غنيماته، وينزل إلى دور مكة ليلهو، فهناك عرس لثرى من أثريائها، والفرصة سانحة لكى يملأ بطنه بالطعام الشهى، ويطرب سمعه بالغناء، ويمتع عينيه بمشاهدة الغيد الحسان؛ وبعد طول تمنع قبل، فلقد منعه حياؤه أن يستمر فى الرفض، فنزل إلى الديار يتلمس أماكن الغناء، ولكن الله عصمه، فضرب على أذنيه فأنامه قبل أن يرى رقصا أو يسمع نغما، ولم يوقظه من النوم سوى وخز أشعة شمس الظهيرة؛ ولما أعلم صاحبه بما حدث له، طلب منه أن يعيد المحاولة، وينزل إلى دور مكة مرة أخرى فيلهو ويسمر، فلهو أهلها لا ينقطع، ولكن المعصوم لم يحظ فى ليلته هذه بأكثر من حظه فى الليلة الأولى، وحين قفل راجعا طلب من زميله ألا يعاود الإلحاح عليه، فلقد عزم على ألا يعود إلى ذلك أبدا، وليذهب رفيقه إذا شاء ليلهو، وليتركه لشأنه.

٢

حين تخطى محمد سن الصبا إلى الشباب عمل بالتجارة، وكان فألا طيبا لمن يتاجر لهم، فيربح الكثير، وينجز عمله بإتقان ميزه عن أقرانه، كما اشتهر بأمانته، حتى أسمته قريش: الأمين.

كان قنوعا، يرضى بالقليل، ولم تكن له أحلام فى الدنيا وزخرفها من: غنى ونفوذ وجاه، ولم يحدث أن تفاخر بعظمة نسبه كغيره من الشباب، ولقد أثار سلوكه هذا عطف عمه أبى طالب، لظنه أن ذاك التواضع مرجعه إحساسه المبكر بافتقاده لنصرة الأب والإخوة، ولقد سأله يوما:

– ألا تفكر يا ابن أخى فى التجارة للأثرياء حتى تصيب بعض حاجات الشباب، فتتزوج وتصبح صاحب دار ولك زوجة؟!.

قال محمد:

– ما خطر لى هذا ببال يا عم.

قال أبو طالب وقد امتلأ شفقة على ابن أخيه الذى أورثه اليتم القناعة والرضا:

– ألا تتاجر لخديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، فهى امرأة من أوفر أهل مكة شرفا ومالا، وهى تستأجر لتجارتها رجالا ليقوموا بها عنها، فيصيبوا منافع لأنفسهم، وأنت تاجر أمين، ذاع أمرك فى القرية كلها، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لفضلتك على غيرك، وأنا يا ابن أخى لو كنت أملك مالا لكفيتك، ولأخرجتك فى تجارة لى.

قال محمد فى تعفف وعزة نفس:

– يا عم لعلها أن ترسل لى فى ذلك.

وبلغ خديجة ما دار بينهما من حديث، وكانت قد سمعت عن محمد وأمانته، وعن البركة التى

تتغشى عمله، فأرسلت تستدعيه، وعرضت عليه أن يخرج متاجرا فى مالها إلى الشام، قال وهو لا يرفع عينيه عن الأرض حياء:

- نعم إنى خارج بتجارتك.

وانصرف بعد أن حياها، ولم يزد فى الحديث.

ولقد أعجبت خديجة منذ اللحظة الأولى ببهاء طلعته، وتعجبت من شدة حيائه، واختلافه عن كل من تعاملت معهم من الرجال، فهو غيرهم، فكأنما هو من مجتمع آخر غير مجتمع مكة الصاخب بالفساد.

لما آن الأوان لرحلة الصيف أن تغادر مكة إلى الشام، أرسلت خديجة غلامها ميسرة مع محمد فى سفره ليقوم على خدمته، وليصف لها أحواله، وتعلقت روح ميسرة بمحمد فلقد استراح لبشاشة وجهه، واستراح له أكثر حين ذهب القرشيون قبل الرحيل إلى أصنامهم يتمسحون بها، ويطلبون منها البركات، بينما ظل هو بعيدا ينتظر، فلقد كان ميسرة مسيحيا يتأفف من نسك أهل مكة.

وحين عبرت القافلة أرض الشام، مرت قبل دخولها إلى «بصرى» بصومعة راهب كان ميسرة يتردد عليه، فلما أناخوا الجمال لتستريح، وليستعيد الرجال بالراحة نشاطهم، وليأخذوا زينتهم استعدادا لدخول المدينة.

استأذن ميسرة محمدا فى زيارة الراهب فأذن له، من غير أن يثقل عليه باستفسار، وما هى إلا لحظات، حتى خرج إليهم الراهب مهيب الطلعة ممصوص العود خشن الملبس، وعلى مبعدة خطوات منه، سار ميسرة مطأطئ الرأس فى تبجيل يهمس له، كان من الواضح أن حديثهما الهامس يدور حول محمد، فلقد اتجهت أبصارهما ثم خطواتهما ناحيته، ولما جلسا إليه، بدأ الراهب يتحدث إلى محمد حول أمور مولده ونشأته، ثم استأذن منه أن يكشف البردة عن ظهره ففعل، وهو غير متعجب، فلقد تعود الناس أن يسمعوا ويروا من الرهبان مثل هذه الأفعال التى تبدو غريبة: ولم لا يريحونهم إذا كان الأمر هينا، والمطلب يسيرا لا شطط فيه؟.

ولما عاد الراهب إلى صومعته متكئا على كتف ميسرة، صارحه بأن صاحبه فيه من العلامات والشواهد ما يشى بأنه هو النبى المنتظر، ولم يدهش ميسرة مما سمع، فلصاحبه أخلاق أهل يسوع، وإن كان ليس على ملتهم، فهو غير كل من صحبهم من رجال قريش فى حله وترحاله، هو أيضا غير كل من تعامل معهم من تجار، من مختلف الملل والأجناس: إنه إنسان فريد، ليس مثله أى شخص آخر، فهو حيى شديد الحياء، صادق كل الصدق، لا يرائى أو ينافق، فهو يرى بذات الوجه الذى يواجه به من يواجه فى السر والعلن؛ متواضع وكأنه ليس من أعز أنساب قريش، حتى إنه لم يكلفه - وهو العبد المطيع لبنان سيده - بأى عمل يشق عليه، بل هو يساعده فى عمله، ويشعره بأنه هو أيضا سيد له من الكرامة والحقوق ما لسائر أفراد القافلة، فإذا ما أدى عملا لم يسأله لماذا أداه على مثل ما أدى، وإذا لم يؤده، لم يزجره، ولم يلمه على عدم أدائه له، بل هو لا يسأله عنه أصلا، لأنه إذا

كانت هناك ضرورة لأدائه، أداه هو فى صمت وإتقان، وكأنه مسئوليته هو؛ هو رحيم رءوف بالجميع، حتى بالدواب، فهو يوصى بها خيرا، ويغضب ممن يقسو عليها؛ أو يكلفها مالا طاقة لها به، أو يقصر فى سقياها، أو إطعامها.

فما أحقك أيها السيد بأن تكون نبيا صديقا.

أسر ميسرة حديث الكاهن فى نفسه؛ حتى إنه كتمه عن صاحبه، فلقد أمره الكاهن بألا يظهره على أحد فيعجل لمحمد معاداة أهله وعشيرته، وميسرة يرى بوادر الغيرة منه مضمرة فى نفوس رفقاء الرحلة، يفضون بها ويظهرونها فى غيبته.

وحين بدأ البيع والشراء، لم يهول محمد من شأن بضاعته ويزكيها، بل عرضها بالحسنى، فأقبل عليه كل من أراد الشراء وأعرضوا عن غيره، فباع سريعا وربح أكثر مما كان ينتظر أن يربح، وحين أراد الشراء، لم يبخس الناس أشياءهم، ولكنه عرض ثمنا يليق بما يبيعون. فباعوا له بأرخص الأسعار وهم راضون، فازداد ميسرة حبا على حب لمحمد، واشتد به الإعجاب حتى بات لا يرى له حياة بعيدا عنه.

ولقد أفصح ميسرة عن مشاعره هذه، لسيدته خديجة حين عاد، وسألته عن محمد؛ وهى تعرف فى عبدها الصدق، فقال لها:

- لم أر يا سيدتى بشرا بمثل خلق محمد، حتى ليبدو كالزهاد، ولقد تمنيت لو أن رحلة العودة لا تنتهى، حتى لا أفارقه.

وحين جلست خديجة إلى محمد؛ حدثها فى إيجاز وتواضع عن تجارتها وما تم فيها، ولم يختلف حديثه عما قال به ميسرة. ولم يزك نفسه، فيتحدث عن جهده وتميزه عن أقرانه، ثم وضع كل ما حصد من مال بين يديها، فلم يقتطع لنفسه أجرا، برغم أن له نصيبا منه اتفقا عليه. فلم تملك خديجة إلا أن تعبر عن عرفانها وتقديرها، فأغدقت له العطاء، وهى راضية كل الرضا.

٣

ازداد قدر محمد عند خديجة، بعد ما سمعت ورأت؛ فهى لم تجد ـ على مدى ما تعاملت مع التجار والرجال ـ من هو على هذا القدر من الصدق والزهد والحياء والأمانة، ولم تستطع أن تخفى مشاعرها، فنادت ميسرة وقد جاشت عواطفها؛ وقالت له:

- لقد صدقتنى الحديث يا ميسرة فنعم الرجل محمد.

ثم كافأته بصرة من المال، وانصرف ميسرة وهو يقول لنفسه: والله إن معرفتك يا محمد كلها خير.

ولم تكتم خديجة حديث الإعجاب بمحمد عن صويحباتها.

ولم يخف محمد عن عمه أبى طالب إعجابه بخديجة، وبنبلها، وعفتها، ورجاحة عقلها.

قالت لها صاحبتها وهى تحاورها:

– لماذا لا تتزوجين منه، وأنت مطلقة، ولا رجل لك منذ سنوات، بل أنت رافضة لكل من تقدموا لك، لا يعجبك منهم عاجب، ولم تتحدثى عن أحد منهم بمثل ما تحدثت عن محمد، وهو من أكثر بطون قريش نسبا، وأعزهم منزلة، وأكثرهم شرفا، وهو الصادق الأمين، فإن هو أرادك لنفسه، فلا مطمع له فى جاهك، ولا كثرة مالك، ككل من تقدموا إليك من رجال قريش.

وقال له عمه أبو طالب:

– يا ابن أخى إنك إن أردت نكاحا، فلن تجد من هى خير من خديجة، فهى من أشراف قريش، عزيزة النفس، كريمة النشأة، فلماذا لا تطلبها لنفسك، فتفوز بالخير والنعمة؟.

ولم يمانع محمد فى الزواج من خديجة، وذهب أبو طالب إلى أبيها فخطبها لابن أخيه.

ولم تمانع خديجة فى الزواج من محمد.

وتزوج الأمين من زهرة نساء قريش.

وازداد قدر محمد عند القرشيين، فالثراء عندهم هيبة وسلطان، والفقر مذلة وهوان، ولم لا يعظمونه وقد ملك ثروة خديجة بزواجه منها؟!.

ولكن الأمين تعفف عن مال زوجه، ولم يفعل فعلهم، وفضل أن يجوب الأسواق على قدميه متاجرا فى القليل مما يملك، فهذا أكرم له من أن يمد يدا إلى مالها هى.

كانت قريش تنظر إلى تعففه متعجبة، وتتهامس بأنه تظاهر، فلم يكن يدور بخلد أى منهم، أن هناك من يمتنع عن إغراء المال، وإن صمد فلأيام معدودات؛ لذا سعت إلى الثرى الجديد متوددة، فأصر أثرياؤها على دعوته إلى مجالسهم ومنتدياتهم، ولكن سرعان ما عافتهم نفسه، وضجر من حياتهم، وسفه أفعالهم لسخفها وهمجيتها، وتدنيها إلى مستوى الهيم.

ترك محمد قريشا تعم فى غيها، وارتقى جبل حراء إلى الغار، حيث كان يتعبد جده عبد المطلب، فوجد فى وحدته بالغار راحة وصفاء، لم يجدهما فى الأخلاء بمكة.

٤

أتاه أمر ربه: أن ارفع القواعد من البيت.

شمر الخليل عن ذراعيه، نادى ابنه، وراحا يحملان الأحجار من الجبل، ويعملان بهمة فى بناء الكعبة، وأخذ البناء فى الارتفاع مرتويا بعرق الخليل إبراهيم، وابنه إسماعيل، عليهما السلام.

وتمر السنوات متلاحقة.

وتتوالى الأمم.

وتكتسح السيول القرية.

ويتهدم جزء من بناء الكعبة العتيق.

فيسارع أحفاد الخليل بالترميم والبناء. فهى المكان الأعز والأحق بالرعاية والاهتمام.

وها هم أولاء القرشيون يعيدون بناء ما تهدم من الكعبة، ويتنافسون على من يكون له شرف المشاركة فى العمل، وكل بطن من بطونها يريد أن يتميز عن غيره، ليفاخر بما سينال من مجد.

وأى مجد يدانى مجد المشاركة فى بناء بيت الله العتيق.

وقد سارع الحكماء منهم وتعاهدوا، على أن يكون العمل بين القبائل: عدلا وارتضاء، تجنبا لإراقة الدماء.

بالحب كان يرتفع البناء.

ولكن، هل لإبليس أن يرضى بأن تمضى الحياة فى سلام، ويكف عن وسوسته للناس بالشر، فيفسد حياتهم؟!.

وإذا كف، ماذا سيكون دوره فى هذه الحياة؟.

وما جدوى وجوده؟.

وكيف ينكص فى قسمه لرب العالمين، بأن يطارد البشر بالوساوس ويبذر فيهم الغيرة والبغضاء، ويفقدهم العقل، فيسهل عليه أن يحل بينهم الكره والبغض، ويقودهم إلى ظلمات الكفر والضلال، ليصل بهم إلى مناه، فتمسى حياة الإنسان خربًا ودمارًا، ويجعل مآلهم إلى النار، فلا يتحقق لهم خير فى الدنيا أو الآخرة.

لقد كان إبليس يرى ما يحدث، وهو يتقافز حولهم، ويتلوى من الألم، مما يرى من تآخ، وكأنما عاد الزمن إلى الوراء، ليواجه ثانية آدم الذى حصن ونبئ، فأصبح لا سبيل له عليه.

ولكن خلق إبليس يجعله لا يكف عن المحاولة، ولا ينى عن النزغ بينهم، فيوسوس، ويوسوس، ثم يزداد هياجا وغضبا لعدم استجابتهم، فَيَئِزُّ أَزًّا، لكنه لا يقنط: فلا بد وأن الفرصة آتية، ولو بعد حين، ومهما بعد هذا الحين.

اكتمل البناء إلى موضع الحجر الأسود، وتسابقت القبائل، كل قبيلة تريد أن تحظى دون غيرها بشرف رفع الحجر وتثبيته فى موضعه، ويحتدم التنافس، ويطول النقاش والتناظر تفاخرا بقديم الأمجاد، ثم يبدأ التراشق بالألفاظ، ليتحول إلى تهديد ونذير، وقد لون الغضب بالقتامة كل شىء، ويروح إبليس اللعين ينفخ مسرورا فى نار الخلاف، فلقد أصبح جنى الثمار دانيًا، فما أسهل انقياد أبناء آدم لأوامر إبليس فى لحظات الغضب، ويزداد إبليس نشوة، فيروح ينفخ.. وينفخ، فيغيب العقل، وتسيطر همجية الشر، وتنفلت الأبدان من سيطرة العقول، فتستل السيوف من أغمادها، وتتنادى القبائل للقتال.

ويصرخ إبليس من النشوة، وقد رأى أن الدماء سوف تسيل أنهارا، فالقتل يوشك أن يعمل، والخراب يدق أبواب مكة، بل يوشك أن يدكها دكا.

ولأن البناء لله.

ولأن الأمر جميعه بيد الله تعالى، نطق صوت الحق عاليا مدويا محذرا بلسان أبى طالب، فأخرس أصوات إبليس التى راحت تنطقهم بالضلال:

- يا أهل قريش أبعد أن تعاهدتم على بناء بيت الله إكبارا لحرمته، أراكم، وقبل أن ينتهى البناء، تسعون لانتهاك هذه الحرمة، وتدنيس أرضه بدمائكم، أليس بينكم رجل رشيد؟!.

وكأنما كانت صرخة أبى طالب زلزالا، هز القلوب الغافلة بعنف فأفاقت على ما يحاك لها، وما هى مُساقة إليه من خراب ودمار، هوت الأيدى إلى الأجناب، وأعمل العقل، وفكر الحكماء وتدبروا، ثم كان القرار:

- لنرض بما يحكم به بيننا أول رجل يفد على الكعبة.

وكان محمد أول من جاء.

وهلل الحضور فرحين مستبشرين:

- الأمين هو الحكم، فاحكم بيننا، أيُّنا يكون له حق وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء؟.

قالوا ما قالوا، وأطبق صمت عميق على الجميع، وعلقت الأبصار بشفتى محمد فى ترقب، ووسوس لهم إبليس:

حقيقة قد ارتضيتموه حكما، وتسمونه الأمين، ولكن أليس هو من آل هاشم، فيفضلهم عليكم، ويختصهم بهذا المجد؟.

سكت محمد قليلا، فتوترت الأعصاب قلقة، واشرأبت الأعناق فى توجس، لكن صمته لم يطل، فلقد قال:

- هلموا إلى بثوب.

وسرعان ما تناثرت من حوله الأثواب، على رغم دهشتهم من طلبه، فهو أهون من أن يحكم بتفضيل إحدى القبائل على غيرها، أو يطلب من بنى هاشم تثبيت الحجر.

مد محمد يده وتناول أقرب ثوب إليه، وفرده على الأرض، ثم اتجه إلى الحجر الأسود فحمله، وصرخ إبليس يستنفرهم:

يا لضيعة عقولكم، لقد سخر منكم محمد وحمل الحجر وحده، لتفوز بنى هاشم بالفخار بين العرب.

وقبل أن تستنفر الأبدان، وضع محمد الحجر فى وسط الثوب، فهدأت النفوس المستثارة، وإن ازدادوا دهشة مما يفعل، قال:

- لِتخترْ كل قبيلة رجلا من رجالها.

تفرقت القبائل، كل قبيلة على حدة، تتشاور، ثم خرج من بين كل قبيلة رجل، فقال لهم محمد:

- تحلقوا حول الثوب، وليمسك كل رجل منكم بأحد أطرافه.

نفذوا ما قال، وتجمع الرجال ملتفين فى دائرة حول الثوب، ثم أمسك كل واحد بقطعة منه، ولما فعلوا، قال:

- لترفعوا جميعكم الحجر لأعلى، ولتأتونى به.

obeikandi.com

ورفع الرجال الثوب، واتجهوا إلى حيث موضع الحجر، فصعد المعصوم وتناوله فثبته فى مكانه، كل هذا وأعين الحاضرين تبرق بالإكبار والتقدير، لابن عبد الله بن عبد المطلب؛ وحين انتهى؛ ارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل.

وتصافحت الأيدى بالسلام.

وأعيدت السيوف إلى أغمادها.

وعادت السواعد ترتفع بالبناء.

وهرب إبليس مدحورا أمام حكمة المعصوم.

٥

خلق الله آدم، ثم نفخ فيه من روحه، تحرك المخلوق الجديد وقد دبت فيه الحياة، أمر الله الملائكة أن تسجد له تقديرا وتكريما، سجدت الملائكة أجمعين إلا إبليس فقد عصى واستكبر، وتذمر قائلا:

- أنا خير منه، خلقتنى من مارج من نار، وخلقته من طين.

أنزل الخالق العظيم غضبه على إبليس:

- عليك لعنتى إلى يوم الدين.

أصيب إبليس برعب شديد، فلم يكن يتوقع أن يغضب الرب هذه الغضبة الشديدة، من أجل مخلوق شانه من طين، خر إبليس ساجدا لله، توقعت كل المخلوقات أن يطلب الصفح، ويتوب عن ذنبه، ولكن الحقد والكراهية تمكنا من قلبه، وأعمياه عن الصواب، توسل إبليس ذليلا يقول:

- رب لا تهلكنى للحظتى، أمهلنى إلى يوم يبعثون.

ولأن إبليس خلق ليكون أداة اختبار لآدم وبنيه من بعده، استجاب الخالق لتوسله، فأمهله قائلا:

- اذهب فأنت من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم.

ولكن كان الجزاء متوقعا، فطرده رب العالمين من الجنة مذموما مدحورا، وتوعده الله تعالى بالعذاب، فأصبح إبليس من الملعونين.

قال إبليس فى غيظ:

- فبما أغويتنى، لأقعدن لآدم وحواء وأبنائهما صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين.

انتابت آدم مشاعر الخوف من توعد إبليس ووعيده، وتعجب متسائلا: لم يضمر لى إبليس كل هذا الكره؟!.. ثم أردف قائلا:

- إنى إذن من الهالكين.

لكن الخالق العظيم أنزل السكينة على قلبه، حين حذر إبليس من التمادى فى وصف قوته وقدرته على الإفساد قائلا:

- إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من تبعك من الغاوين.

ثم حذر آدم من إبليس قائلا:

- يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى.

(٦)

كان آدم كلما تجول بين أشجار الجنة ليقطف من ثمارها ما يحب، يتجنب قدر طاقته أن يقترب من الشجرة التى حرمها الله، وهو لا يفتأ يقول لنفسه..

ويلك يا آدم احذر. فمن هذه الشجرة سيجىء إغواء إبليس.

ويوما بعد يوم، كان التحذير يخفت، وبدأ النسيان يزحف شيئا فشيئا، ووجد إبليس أن اللحظة قد اقتربت أسرع مما كان يتوقع، وأن عليه أن يسرع بالعمل، فاقترب من حواء وآدم هاشا باشا، وعجبا من كل تلك البشاشة التى يبديها لهما، قال إبليس وهو يمسك بأغصان الشجرة المحرمة، ويقربها منهما فى إغراء وإغواء:

- ما بالى أراكما تبتعدان عن هذه الشجرة، فلا تأكلان منها؟!.

قال آدم فى تخاذل:

- لأننا نهينا عن ذلك.

قال إبليس وقد ملأ صوته بالأسف والحزن:

- يا لضيعة أحبائى، إنها شجرة الخلد، من يأكل منها لا يموت أبدا، فإذا أكلتما تكونان من الخالدين.

ونظرت حواء إلى الشجرة.

ونظر آدم.

وكانت نظراتهما تشى بالرغبة فى أن يأكلا منها، وتساءل آدم فى استسلام:

- أحقا ما تقول؟!.

تنهد إبليس وقد ملئ حبورا، وأقبل عليهما يقسم لهما إنه لمن الصادقين، والأمر لن يستغرق وقتا طويلا ليدركا صدقه إذا ما أكلا.

وأكلا.

وضحك إبليس طويلا.. طويلا فى نشوة المنتصرين، ثم قال هازئا من آدم:

- ألا ما أضعفك يا غريمى.

ثم قهقه.. وقهقه، حين تكشفت سوأتا آدم وحواء، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليواريا ما انكشف، وكان الله قد سترهما، لكنهما فضحاه بنسيانهما.

لقد انهزم أبو البشر فى أول مواجهة.

وانتصر إبليس.
انهار آدم ساجدا لله تائبا مستغفرا، طالبا رحمة الرحمن الرحيم، وقد ملئت نفسه بالندم واللوم على ما فرط فى جنب الله.
وعفا العفو الرحيم.
وكان لابد من جزاء، لتكتمل الإرادة الإلهية:
وطرد آدم وحواء من الجنة ليعمرا الأرض.
وعرف إبليس موقع الضعف فى آدم، وأنه خلق نسيا.

٧

حين هبط آدم وحواء إلى الأرض، أدركا أنهما عادا إلى الطين الذى كانت منه النشأة الأولى.
ولكن آدم لم ينس أن هناك من أغواه ويترقبه بالغواية والهلاك، وكيف له أن ينسى وقد أخرجهما بوسوسته من الجنة؟!!.
ولم تنس حواء مرارة تجربتها الأولى مع عصيان أوامر الله، وما كانت ترضى أن تعرى مرة ثانية.
لذلك لم تذكر لهما خطيئة أخرى.
كان حصنهما الحصين ذكر الله: يذكرانه فى السر والعلن، وإذا ما أراد إبليس أن يتقرب إليهما، استعاذا بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فتضرب الاستعاذة حولهما سورا يتحصنان داخله من وسوسته، فلم ينجح إبليس على رغم كل محاولاته وتغييره فى أساليب الولوج إلى النفس، فى إيقاعهما فى إساره، ولم ينتصر عليهما ثانية، وكيف له ذلك، وهما فى حفظ الله؟.
أصيب إبليس بالقنوط، واشتدت نقمته وكراهيته لآدم وحواء، ولكن فى لحظة واحدة انقلب يأسه إلى أمل، وحزنه إلى سرور، فلقد سمع حواء تقول لزوجها: إنها قد حملت، وأنها على وشك أن تلد أول الخلفاء.
تأججت الكراهية فى صدر إبليس وأصابه السرور، فقد تأكد من صدق حواء، حين تسمع إلى أخبار السماء، فعرف أن الله سيرزقهما بتوءم: ذكر وأنثى، وأنه سوف يتعاقب الحمل، وفى كل مرة يرزقان بالولد والبنت، ليتزوج كل ذكر من أنثى البطن الآخر، ويتناسل الآدميون، وتعمر الأرض، ويكثر البشر، وتكثر الخطايا.
ظل إبليس يحصى اللحظات مترقبا فى حقد متلظيا، راغبا فى التنفيس عن كراهيته لأولئك القادمين، ويزداد شبقه لعبور الحاضر إلى المستقبل، حين يعرف من خبر السماء أنه سيكون لآدم أحفاد يعدون بالملايين، ويئز فى نشوة يقول:
– والله لأغوينهم أجمعين، ولأوردنهم موارد التهلكة، ولأجعلن النار مثواهم، ولبئس القرار.
كان آدم يعلم أن إغواء إبليس سوف يطارد أولاده وذريته إلى يوم الدين، فحذر بنيه من إبليس وقبيلته، ولم يبخل عليهم بعلم، فعلمهم ما تعلمه من الملائكة، ونبأهم بما نبأه به الله تعالى، ولكن ماذا يستطيع، وناموس الحياة يقول بأن هناك دائما: للخير أناسا، وللشر أناسا.

واستطاع إبليس أن ينفذ إلى دم قابيل، وأخذ يبذر فى نفسه بذور الغيرة ويغذيها بالأوهام والأكاذيب، حتى نمت وتوحشت، فأصبح قابيل وليا من أولياء الشيطان، فلا يسمع إلا ما يريد له أن يسمعه، ولا يرى إلا ما يشاء له أن يرى.

وجاءت لحظة الدفع للخطيئة الكبرى.

ودفع إبليس قابيل لقتل أخيه هابيل: فقتله!!.

واهتزت السماوات ألما لحادث القتل الأول، فمن القاتل، ومن القتيل؟.

القاتل قابيل، والقتيل هابيل، ابنا نبى الله آدم، وبكارة البشر!!.

ويعلم الأب.

وتعلم الأم.

ويتمزق الفؤادان ألما، من عظم الجرم، وفداحة الإثم، ويرفع آدم كفيه إلى عنان السماء متوسلا، ودموعه تنساب مدرارا، فما أشق أن يرى الأب أبناءه يقتل بعضهم بعضا، قال:

– رب أنزل على حواء وعلى صبرا، ولتحل بنا رحمتك يا أرحم الراحمين.

ثم أسرع آدم إلى بنيه يجمعهم، وهو يستشعر الخطر المحدق بذريته، فلقد أدرك أن إبليس قد عاد إلى الانتصار مرة أخرى، قال لهم:

– أى بنى إن الشيطان لكم عدو مبين، ولكم فيما حدث لى ولأمكم عظة وعبرة، وفيما حدث لأخويكم نذير شؤم، فانتبهوا إلى عدوكم، الذى سيظل يتربص بكم الدوائر، ليفسد حياتكم بالندم على طاعتكم له، فهذا قابيل قد فعل فعلته وفر هائما بين الجبال نادما على ما جنته يداه، مطاردا بالعذاب، ممزق الفؤاد، وهذا هو حصاد طاعة إبليس، فالجانى يلقى عذابه عن الخطيئة مرتين: مرة فى الدنيا،ومرة فى الآخرة، وهذا ما يريده إبليس بكم، وهذا ما أقسم أنه فاعله، ولكن الله أعطاكم سبل الاختيار، ووضح لكم طريق الانتصار عليه، فإياكم أن تعمى منكم القلوب والأبصار، فلا تنتهوا عما نهاكم الله عنه، وتذكروا أن إبليس محيط بكم، فانتبهوا لهذه الحقيقة حتى لا ينقض عليكم، واعلموا أنه لا سبيل له عليكم ما دام الله حيا فى قلوبكم، حاضرا فى أفعالكم.

٨

ومرت السنوات وتعاقبت. فصارت قرونا.

وتكاثر أبناء آدم وحواء.

وسعى إبليس بالشر ينشره بينهم، فلقد بهرتهم ملذات الدنيا فراحوا يعبون منها عبا، وانشغلوا بأنفسهم، ونسوا الله.

وانغمست البشرية فى ملذات تعافها الحيوانات، وكثر الظلم حتى صار ظلمات.

وها هى ذى الرسل تترى، مذكرة ومحذرة، فتصحو القلوب الطيبة، وتظل القلوب الخبيثة تعمه

فى غيها، ولكن القلوب التى أفاقت، لا تلبث أن تغفو، وتستسلم فى لحظات غفلتها لأزيز الشياطين. فالحكام من ملوك وكهان ورهبان سعداء بما هم عليه من سلطان، يسخرونه فى العب من المتعة أيًا كان مصدرها، حتى أصبحوا أشر من يعيش على وجه الأرض!.

وجاء موسى عليه السلام مُعضَّدًا بأخيه هارون إلى فرعون وملئه. يدعوه إلى الهدى والصلاح والفلاح، والعودة إلى عبادة الله الواحد الأحد، ولكن فرعون أبى الهداية وازداد طغيانا وكفرا، إلى أن كان نصر الله وعبر موسى بقومه بحر الظلمات إلى بحر الهداية والرشاد، وغرق فرعون وجنوده فى اليم.

ولكن إيمانهم لم يلبث إلا قليلا، وعادوا يغوصون فى شركهم، وضلالهم القديم!.

وبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام آية من قدرة الله على الخلق، فخلقه من غير أب، دعا اليهود إلى العودة إلى عبادة الله، وبشرهم برسول يأتى من بعده اسمه أحمد، فلم يستجب لدعوته إلا قليل من الحواريين والفقراء، لاقوا من اليهود الأهوال من صنوف العذاب والاضطهاد، ولما ضاق إبليس من اشتداد الدعوة، أمر أنصاره من اليهود بقتل عيسى عليه السلام، ولكن الله رفعه إليه، وما قتلوه، وما صلبوه، ولكن شبه لهم.

واتسعت مساحة النور باستجابة الناس للتعاليم الإلهية التى حمل أمانتها الذين صدقوا برسالة عيسى عليه السلام وساروا على دربه، ولكن سرعان ما نزغ إبليس بينهم، فجعلهم شيعا وأحزابا، كل فريق يختلف ويتناحر مع غيره من الفرق الأخرى، كما زين لهم حب السلطان والتحكم فى الخلق، فخفت صوت الزهد فيهم، وضاع الحياء من بينهم، وسيطرت عليهم الماديات وقادتهم الشهوات، وسارت الغلبة من الرهبان على درب من سبقوهم بالمعصية من الأحبار، فأخفوا من الإنجيل ما سبق وأن أخفِى من التوراة، واصطنعوا لأنفسهم قدسية ما هى لهم، ولا أمر بها الله، ولكنهم ابتدعوها، فدخلوا، وأدخلوا الناس معهم فى ظلمات الشرك والضلال.

وعاد إبليس يجأر منتصرا، فغرقت الأقطار المسيحية، فيما هى غارقة فيه باقى الأقطار، من مادية مفرطة فى طلب الملذات، ونسوا أن السيد المسيح عليه السلام كان مترفعا عن الدنايا، وكان حصورا.

٩

أما من لم يستجيبوا لدعوة موسى ولا عيسى، من أهل الجزيرة العربية، وخاصة القرشيين منهم خاصة، فبقوا على ما كان عليه الآباء والأجداد من دين إبراهيم عليه السلام، لكن إبليس أدخلهم فى الشرك، بأن زين لهم أن يتخذوا من الأصنام وسطاء بينهم وبين الله، ثم أنساهم ذكر الله، فأصبحت الغلبة تعبد الأصنام من دون الله، وأصبح إبليس يحيا بينهم نهارا جهارا.

ووسط هذا التدنى تتأرجح ما بين الشرك والكفر، بدأت نجوم شاحبات تبعث بنورها، ينساب باحثا عن سبيل يضئ تلك الظلمة الظلماء التى عمت البشرية، إرهاصا وتبشيرا بقرب تحقق وعد الله برسول يأتى من بعد عيسى عليه السلام اسمه أحمد، وسمع القرشيون قولا فى أصنامهم، مثل ذلك الذى قاله الجد الأكبر إبراهيم عليه السلام:

– والله إن أصنامكم لا تغنى ولا تسمن من جوع، ولا تستطيع لكم ضرا ولا نفعا، ولا تستطيع دفع الأذى عن نفسها.

ثم ظهر من بينهم من هجر وثنيتهم إلى المسيحية، كورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وغيرهما وإن كانوا قليلا. ولقد شجعهم على إعلان عقيدتهم، ضعف السلطة فى مكة، فبعد وفاة عبد المطلب تصارع القرشيون على الزعامة، ولم تجتمع لهم كلمة!!.

كما ظهر من ترك كل ما يعبد الناس، واتجه إلى البحث عن الخلاص فى وحدانية الإله، كزيد ابن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب، ولقد لاقى زيد من قريش كل صنوف المهانة، مما دفعه للهجرة سائحا فى بلاد الله، لا يقر له قرار، ولا يكف عن البحث عن نور يرشده إلى طريق الوحدانية، حتى ورد الشام والتقى بعالم من علماء يهود، فسأله عن اليهودية، فقال له:

– إنك لا تكون على ديننا، حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله.

قال زيد لليهودى:

– والله ما خرجت من دارى، ولا هجرت دين أهلى إلا خوفا من غضب الله، وبحثا عن طاعته ورضاه.

قال اليهودى:

– ما يقول قولك هذا إلا الحنفية.

قال زيد مستبشرا فى لهفة من أتعبته نفسه بحثا عن اليقين، ويتعجل لها أن ترضى وتهدأ:

– وما الحنفية؟.

قال اليهودى:

– هى دين إبراهيم، لم يكن يهوديا ولا نصرانيا.

قال زيد فى رجاء:

– ألا علمتنى دين إبراهيم؟.

قال اليهودى:

– ما بقى أحد يعرف دين إبراهيم.

ترك زيد اليهودى، وسار يحدوه الأمل فى أن يجد عند النصارى ما لم يجد عند اليهود، ذهب إلى الرهبان فى الكنائس والمغارات، يسألهم عن دينهم، فلم يجد غير قول واحد:

– انك لا تدخل ديننا حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله.

ارتاعت نفس زيد: فهل هنالك من يسعى إلى أن تصيبه لعنة الله؟!!.. وهو ما خرج إلا بحثا عن رحمة الله.

ولما أفصح بخوفه، قال له الراهب:

– إنك لا تجد هذا إلا فى دين إبراهيم، ما كان يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما. وما أحد على دينه الآن.

عاد زيد إلى مكة، وأعلن الناس بقوله:

– اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم.

واعتكف فى الكعبة مبتعدا عن حياة أهلها، ولا يسمع منه غير قولة يقولها، ولا يحيد عنها:

– اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكننى لا أعلمه، ولا أقنط من رحمتك.

ثم يخر ساجدا لله الواحد، راجيا أن يطول به العمر، فيخرج من جديد باحثا عن دين إبراهيم، فلعله واجد من يرشده.

ويرتاع إبليس..

وينفض فى هياج شديد، متسائلا..

ألا من استسلام كامل لى، ألا من طاعة شاملة كاملة؟!.

وتدوى الحقيقة الأبدية فى الوعد الحق الذى أعطاه الله تعالى لبنى آدم، تمسك بخناق إبليس وتهصره هصرا: «إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من تبعك من الغاوين».

١٠

كان محمد يكره عبادة الأوثان، كما كان يكره الكهان والرهبان؛ لأنه يعلم أن أكثرهم أنصار لإبليس، ينتصر بهم على الخير فى الإنسان، وكان يعجب إذ يراهم بين الأقوام مهابين مجابى الطلب، ولهم من السيطرة على الأفئدة ما يحمل الناس على الخوف منهم والوقوع فى إسارهم، ولم لا، والشياطين تحمل إليهم أخبار الغيب التى يتسمعون إليها من السماء، فيفتنون بها الناس، ويسيطرون عليهم، وما أسهل أن تملك فؤاد جاهل يعبد حجرا أو نجما، أو خلقا من خلق الله، ويخاف أن يطرح صنمه أرضا، فى حين يطرح جسد غريمه، ويهيل عليه التراب.

وبينما كانت قريش تتردى فى أميتها وجهالتها، وقد أصاب تجارتها البوار، وأصاب الجفاف صحراءها؛ كان محمد يعلو فى قدره، ويسمو فى خلقه بين قومه.. وأصابت الفاقة عمه أبا طالب، فلقد جفت ضروع نوقه وغنمه، وركدت تجارته، ولحقه ما أصاب أهل مكة من جدب، وتحركت الشفقة فى قلب الشفوق، فذهب محمد إلى عمه العباس يستحثه على مساعدة أبى طالب، واتفقا على أن يكفل كل واحد منهما ابنا من أبنائه الكثر، ليخففا عنه ولا يجرحا مشاعر الكرامة فيه.

وتحدث محمد إلى زوجه خديجة فأقرته على ما اعتزم، وامتدحت سلوكه، وحين صحب محمد على بن أبى طالب إلى داره؛ رحبت به خديجة كل الترحيب، واستقبلته وكأنه صغير من صغارها عاد بعد غيبة إلى أهله وداره.

لقد كانت خديجة منذ عاشرت محمدا تكبره كل الإكبار، وتمتدحه أمام الجميع، وكان إذا ما جاء ذكر لاسمه فى حديث عابر توردت وجنتاها، وانفرطت عواطفها من شدة الوجد؛ وقالت:

– محمد الأمين حفظه الله لأهله.

obeikandl.com

وكثيرا ما راجعت نفسها خجلى مما تظهره، وكثيرا ما لامتها صويحباتها على هذا الإظهار للحب الذى يفسد عليهن الرجال!.

ولكن هل زوجها كغيره من رجال قريش؟!!.

محال فهو ليس مثلهم أبدا، فهو له خلقه النبيل، وتصرفه المحمود، فكيف لهن أن يدركن ما تتكلم عنه.

لقد عاشرته فوجدت منه خلقا غير خلق من عرفت من بشر، وإن حضوره للدار لريح طيبة، وإن ذهابه لشوك، فنفسها المشتاقة إليه ما تشتاق إلا بحثا عن الطمأنينة والمودة والرحمة: فهو أول زوج احترم أدميتها، وامتدح عملها، بل شاركها فيه، وهو من أحيا شعورا كان قد مات، بأنها ركن مهم فى الحياة، بعد أن جعل رجال قريش نساءهم كسقط المتاع: يأمروهن فيأتمرن، وينهونهن فينتهين، ولا رأى لهن، ولا حق فى مشورة، يقبلون عليهن حين تكون لهم بهن حاجة، وينفضون عنهن إذا ما انقضت حاجتهم منهن؛ وإذا تذمرت امرأة، أو ارتفع لها صوت يدسون أنفها فى التراب!!.

أما هو الصادق الأمين، فلقد أحاطها بحنانه، وشملها بعطفه، وأيقظ فيها كل مشاعر الحب والكرامة؛ فأقبلت عليه مخلصة وفية، تغدق عليه من فيض مشاعرها، فكانت له الأم التى حرم منها فى صغره، والحبيبة التى تضعه فى عينيها خوفا عليه من نسمة الهواء أو لفح الشمس.

كانت تتمنى لو منحته وجودها كله، ولم تجد سبيلا تعبر به عن عرفانها إلا أن تكرس حياتها، لتعطيه البنين والبنات، فولدت منه القاسم وعبد الله الطاهر، وزينب وأم كلثوم وفاطمة، وهى التى لم تنجب من زوجيها السابقين غير ولد واحد، على رغم صغر سنها آن ذاك.

وهى لا تنسى ذلك الحزن النبيل الذى غلف ملامحه حين مات ابناهما: القاسم، ثم لحق به الطاهر، فلقد أخفى عنها حزنه، وأقبل عليها مواسيا، يهون مشاعر الفقد التى كانت تحرق منها القلب..

فما أنبل حزنك.

وما أعظم صبرك.

وما أغلاك من زوج، جعلت بحسن عشرتك كل ما يضيع مهما عز شأنه، وعلت منزلته، يهون ما دمت أنت سالما.

انقطع محمد عن منتديات قريش، وأكثر من الصعود إلى غار حراء لينقطع فيه متعبدا لله، بعد أن كان لا يتحنث فيه إلا فى شهر رمضان، فقال القرشيون:

- إن محمدا عشق ربه.

ولاحظت خديجة أن محمدا قد قل كلامه، وندر إقباله على الطعام لكثرة ما يصومه من أيام.

وشغلها أمره كثيرا، حتى أضحت لا تنام الليل، ولما أمضها الفكر، رأت أن تسأل الكهان، فلعل ما أصابه سحر قام به الحاسدون، المستكثرون عليها هناءها معه، وكونه قدم سعد فى حياتها. فمنذ تزوج منها، راجت تجارتها، وتضاعفت أموالها؛ وحين استشارته فيما قر عليه قرارها، غضب غضبة ما رأته قد غضب مثلها، وقال ملاوما:

- يا ابنة العم، ألا تعلمين أن الكهان أنصار للشياطين يلجأون إليها فى أعمالهم، ويستخدمونها فى خداع الناس، فأعمالهم نجس من نجس.

واعتذرت خديجة للحبيب.

ولم تعد لمثل هذا الحديث مرة أخرى.

□□□

obeikandl.com